ابن خـــلدون
مؤرخ الحضارة العربية
للأستاذ عيسى محمود ناصر

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

الكلام على الفصلين الثالث والرابع

يمكن أن يقسم كلام ابن خلدون فيهما أقساماً ثلاثة : الإقليم والبيئة الجغرافية والدين ؛ فلقد تتبع المجتمع البدوى والحضرى وحكومته على اختلاف ضروبها ووسائل الارتزاق ولم تعد أحكامه في سياسة الممالك الاستبدادية التي ذكرها في مقدمته مطردة في عصرنا هذا إذ أصبحت طريقة الحكم في هذا العصر دستورية مبنية على الحكم النيابي الذي يؤيده الدستور ويدعو إليه سواء أكانت جمهورية أم ملكية ، على أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة

ومن رأى ابن خلدون أن هناك ثلاث ظواهر مستقلة عن المجتمع تؤثر فيه باستمرار هى : الإقليم والبيئة والجغرافية والدين ، وقد تأثر في نظرياته الجغرافية « ببطليموس » الجغرافى اليونانى ، وبالإدريسى الجغرافى العربى ، وهو في هذا يبين أن البيئة الجغرافية وسيلة إلى شرح الأقاليم المختلفة ، وأن درجات الحرارة المختلفة تؤثر في أجسام الناس وأخلاقهم ، ومن ثم في الحضارة ؛ فسواد لون سكان الجنوب يرجع إلى شدة الحر حيث الشمس محرقة دائماً ، وأما لون أهل الشمال فأبيض للسبب العكسى . أما الأقاليم المعتدلة فأجسامهم أقوى وأوفر توازناً في حين أن أهل الأقاليم المنحرفة مجردون عن الحضارة ، فهم همج لا يعرفون شريعة ولا حكومة ولا ديناً ، وأخلاقهم في غاية التنافض ، ولكنها بعيدة عن أن تكون مجتمعاً متحضراً . ويعلمنا التاريخ أن الحضارة لم توجد قط إلا في البلاد المعتدلة ، وأن درجة كمالها تختلف بقربها أو بعدها عن الإقليمين المنحرفين ، ولهذا كان الإقليم الرابع الذي يشغل الوسط والذي يتمتع بحرارة معتدلة ينعم دائماً بضروب الحضارة ، ففيه الحكومات والشرائع والأديان المنزلة والعلوم والفنون . ويضع ابن خلدون في ذلك الإقليم المعتدل : الشام والعراق ، فالشام مهد اليهودية والنصرانية ، والعراق كان بها الحضارة الآشورية ، ولكنه اعترضته صعوبة أن بلاد العرب مهد الإسلام ، وموطن العربية — ليست من الأقاليم المعتدلة ، ولكن البحر يحوطها من ثلاث جهات فأثرت رطوبته في الهواء ولطفت من قيظها المفرط . ثم قال : إن بأخلاق أهل الجنوب خفة وطيشاً ، وإنهم لا يعرفون السكينة ، ويقضون معظم حياتهم في اللهو والرقص ؛ فالحرارة مخلخلة للهواء والبخار زائدة في كميته ، وقد اتفق ابن خلدون و « منتسكيو » في أثر البرودة والحرارة في الأجسام ، ولكننا لا نرى في هذا العصر أثراً لمقاومة البرد والحر ، وهناك برهان قاطع على أن نظرية الإقليم كما يشرحها « أرسطو » وابن خلدون و « مونتسكيو » ليست معصومة من الزلل ؛ فابن خلدون يرى أن سكان الشام والعراق هم أكثر الشعوب فوزاً بذلك الامتياز ، و « مونتسكيو » يرى المثل الأعلى في أمم الشمال ، و « أرسطو » يرى الشعب اليوناني هو الذي بعث ذلك التقدم إلى باقي الشعوب

ثم تكلم ابن خلدون عن الروح البشرية والنبوة والكهانة ، وهو لا يعتبر الدين من عوامل الحضارة ، ولا يعلق على تأثيره فيها

أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » . وقد فعل القرآن الكريم ما يقرب من هذا مع الروم في حروبهم مع الفرس ، فراعى لهم أنهم على كل حال أهل كتاب ، وبشر المسلمين بنصرهم في الآيات الأولى من سورة الروم « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ؛ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم »

أما قوله تعالى : « قلنا يا ذا القرنين » فلا يفيد إلا أن ذا القرنين كان في تلك الفتوحات وفيما يقصده منها مسيراً بأمر الله وقد ذكرنا أنه كان له في تلك الفتوحات مقاصد نبيلة ، وكل شيء يحصل في هذه الدنيا فبأمر الله وتقديره .

عبد المتعال الصعيدى

أهمية كبيرة ، والواقع غير ذلك ؛ فالمجتمعات تتأثر بالدين وله تأثير قوى فى النفوس ، والدين مادة غزيرة من الفلسفة والتقاليد والمعتقدات . ولقد وفق ابن خلدون بين الفلسفة والدين كما وفق ابن رشد بينهما

ويؤخذ على ابن خلدون فى مقدمته إنحاؤه على العرب وقسوته فى الحكم عليهم فى كثير من سياسة الملك ؛ فقد غمطهم حقهم ، وشدد النكير عليهم ، فنعى عليهم عجزهم عن التغلب إلا على البسائط ويقول : إنهم لا يتغلبون على قطر إلا أصابه الخراب المطلق ، فهم يهدمون الصروح ، ويغتصبون أملاك المغلوبين مستشهداً بتخريب إفريقية الشمالية فى القرن الخامس ، وأنهم يجهلون سياسة الملك . والتاريخ وحده أقوم دليل على دحض هذه المفتريات . ويبدو فى كلامه هذا التحامل على العرب ، وإنه لعربى حضرىّ ، ولكن ذلك راجع إلى العصبية المغربية ؛ فأهل المغرب لهم عواطفهم وتقاليدهم ، وهم قد خرجوا من سلطان العرب منذ القرن الثانى للهجرة .

أما تحامله على العرب وعجزهم عن التغلب إلا على البسائط كسهول الشام والعراق ومصر وساحل إفريقية الشمالية فمردود بحوادث التاريخ فقد نسى ابن خلدون أو تناسى أنهم فتحوا فارس واستقروا هناك أكثر من قرنين ، وأنهم فتحوا بلاد الأندلس ، وأسسوا فيها حضارة وملكاً كبيراً استمر أكثر من ثمانية قرون

أما تخريب إفريقية الشمالية فى القرن الخامس فلم يكن إلا بأمر الخليفة الفاطمى . ثم مَنْ هم العرب الذين فعلوا ذلك ؟ إنهم بدو أعراب لم يتكافوا تربية ولا نظاماً . ولنا شاهد من تأسيس حضارة العرب فى فارس والشام وأسبانيا وإفريقية . ثم يقول : إن العرب ليسوا أهلاً لتأسيس الدولة إلا من طريق أثر دينى قوىّ ، وإنهم يجهلون سياسة الملك مع أنهم قبضوا على ناحية الحكم فى الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى والحديثة وكانوا أقدر وأعدل وأمهر ؛ فقد هيئوا للشعوب المغلوبة أسباب التقدم العقلى المادىّ . ويقول : إنهم يبالغون فى احتقار العلوم والفنون مستنداً إلى أن معظم العلماء فرس وموال . ولكن أيغيب عن ذهنه أن هؤلاء البدو فرضوا دينهم ولغتهم على دولتى الفرس والروم ؟ اللهم إنها العصبية المغربية تغلبت عليه !

ابن خلدون والنقد الحديث

يصف الأوربيون ابن خلدون بأنه « مونتسكيو » العرب . وقد ترجمت مقدمته ونظرياته إلى اللغات الحية . وفي منتصف القرن التاسع عشر عنى النقد الأوربى بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة ، وكان أعجب ما فى هذا الاستكشاف أن يظفر الغربيون فى تراث هذا المفكر المسلم بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربى . وقد ردد « مكيافللى » المؤرخ السياسى الإيطالى الذى ظهر بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن كثيراً من نظرياته وآرائه كما رددها « مونتسكيو » المشرع الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى و « آدم سميث » الفيلسوف الاقتصادى وغيرهم ، ولابن خلدون فضل السبق فى هذه الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفة التاريخية .

ويعتبر كتاب «الأمير» «لمكيافللى» كمقدمة ابن خلدون . على أن ابن خلدون أغزر مادة وأوسع أفقاً من « مكيافللى » ذلك لأن مؤرخنا اتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة أساسية لدرسه معللاً لها على ضوء التاريخ . أما « مكيافللى » فيدرس الدولة فقط أو يدرس أنواعاً معينة من التاريخ اليونانى أو الرومانى القديم ، أو تاريخ إيطاليا فى عصره ، أو يدرس شخصية الأمير أو الحاكم ؛ وهذه الدراسة المحددة تقابل الفصل الثالث من مقدمة ابن خلدون وإن كان ابن خلدون يفوق « مكيافللى » ، ويبتدع نظرية العصبية ونظرية أعمال الدولة وخواصها من الناحية الاجتماعية . ويمتاز « مكيافللى » من جهة أخرى بسلامة منطقه ودقة عرضه وتدليله وجمال أسلوبه ؛ وهو فى فلسفته هذه وصم آراءه ونظرياته بالصرامة والقسوة والخبث حتى كانت فى عصرنا الحاضر مضرب المثل للسياسة الغادرة التى لا ضمير لها ولا وازع فتناضت عن المثل العليا للانسانية والخلقية ؛ فالنفاق والشح ، والضعة ، والقسوة ، والإرهاب ، والختل ، ونكث العهود ، وإهدار الإخلاص ، والصداقة ، والأمانة ، والدين والوفاء ، كل أولئك تقوم عليه هذه السياسة «المكيافللية» وهى عنوان السياسة العملية القوية الخاطفة التى نشاهدها فى هذا العصر بين بعض الأمم والأفراد

وقد إعتبر ابن خلدون مؤرخاً لحضارة الدول الإسلامية ، فتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم والخطط العامة ، كالقضاء ، والشرطة ، والإدارة ، وتطورها فى الدول الإسلامية كما تحدث عن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن الحرة والحرف والصناعات ، ووجوه الكسب والمعاش ثم عن العلوم والفنون والآداب وتطورها فى العالم الإسلامى ، وإنما عالج هذه المسائل اعتقاداً منه أنها صور لهذا العمران ، ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

وقد أثرت فى آرائه العلمية مبادئ «أرسطو» و«أفلاطون» وبخاصة الجمهورية لأفلاطون كما أثرت فى آرائه فلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ، وكما أثر فيها المسعودى أيما تأثير ، وقد استطاع أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية كما يقررها أساتذة القانون السياسى والدينى

ويمكن أن توصف فلسفته بأنها يغلب عليها التشاؤم والتطير ، ولكن تشاؤمه تشاؤم رجل مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وإنما يشاهد ، وهو بذلك يدلل على ذهنية علمية . ويرى بعض المستشرقين أن مصدر هذا انحطاط الدولة الإسلامية وتأخر الحضارة فى العصر الذى كتب فيه ابن خلدون مقدمته ، وإلى الظروف السياسة التى تقلب فيها وعصفت به ، وما أصابه فى حياته فى خويصة نفسه من ألم وخيبة أمل

وقد أوضح أهمية المال وبعد أثره فى قوى الدولة الداخلية ، وذكر كيف يقضى سوء الإدارة المالية والإسراف دائماً على الدولة بالفناء

ومن رأيه أن تأسيس الدولة سابق على تأسيس المدن ، لأن الدولة وسيلة لتأسيس هذه المدن ؛ فالقبيلة لا تستطيع ذلك قبل أن تتخذ شكل الدولة المنظمة تجتمع قوتها فى الحكومة ، فقد بنيت بغداد بأمر الخليفة المنصور ، وبنيت الفسطاط والكوفة والبصرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، وابتنى القائد جوهر مدينة القاهرة تنفيذاً لأمر المعز لدين الله الفاطمى ، ولحماية المدينة من الغارات تحاط بالأسوار الطبية والصناعية ، وتصان صحة السكان بجودة الهواء وغزارة الماء . وقد بين أن العرب لم يحسنوا اختيار مواقع مدنهم لأنهم يعنون بالمراعى ، وأنهم يجهلون بأن للهواء صفات يجب اعتبارها ؛ لأنهم تعودوا حياة التجوال والانتقال ؛ لذلك لم تكن المدن التى أسسها العرب فى بدء الإسلام فى العراق وأفريقية أهلاً للحضارة الثابتة ، وأن تقاوم صروف الزمن ، فقد زالت حينما سقطت دولها ؛ ولكن هذا الرأى مردود بأن الكوفة والبصرة لا زالتا موجودتين فى عهد ابن خلدون . وعنده أن تقدم الحضارة يتوقف على مزايا الأرض ومزايا الحكومة وكثرة السكان ، فمن الأرض تستخرج كل المواد الأولية ، والحكومة يجب أن تكون قوية عادلة كريمة ، وكذلك عمر الحضارة منوط بعمر الدولة لأن سقوطها يفضى إلى سقوط العاصمة ، ومن ثم تصاب الحضارة بضربة شديدة ؛ ولكن الحكومة الجديدة المتغلبة إذا كانت حازمة قوية استطاعت فى الحال أن ترد إلى العاصمة كل رخائها ، أما كثرة السكان فتخلق الحضارة ، وكلما كثر السكان كثرت المدنية وازداد الغنى واتسع المجال لتحصيل ثمار الترف !

ويرى ابن خلدون أن من أسباب ضعف الدولة انغماسها فى الترف وضعف العصبية أو الحزب الذى أنشأها وما ينشأ عن هذا الضعف من مطالب بعض الجنود الأجانب الذين يتخذهم بعض الملوك لحمايتهم . ولا شك أن لفيلسوفنا آراء ومذاهب ونظريات يؤيدها العلم الحديث والعرف ، وما نراه فى هذا العصر من قيام دولة وسقوط أخرى واختلاف الناس فى مذاهب الحياة وفهم الأخلاق . وقد عنيت أن أجلو أمام القارئ بعض هذه الآراء تاركا له فرصة الاستيعاب والتمحيص والموازنات الدقيقة .

والله ولى التوفيق

عيسى محمود ناصر
المدرس بمدرسة الفيوم الثانوية

مصادر هذا المقال :

١ — فلسفة ابن خلدون الاجتماعية
٢ — ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي
٣ — ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى
٤ — مقدمة ابن خلدون — ترجمة الكاتب بقلمه

حكم فى الجنحة رقم ٥٠٨ سنة ٤٢ عسكرية المنيا بجلسة ٣-٦-٩٤٢ بحبس على عمر حسين جزار بندر المنيا شهراً مع الشغل لبيعه لحما بأكثر من التسعيرة

حكم فى الجنحة ٥٣٢ سنة ٩٤٢ عسكرية المنيا بجلسة ٣ - ٦ - ٩٤٢ بحبس محمد حسن عبد الناصر صاحب مخبز بنى مزار ثلاثة شهور لبيعه خبزا بأكثر من التسعيرة